فى الترام أيضا . . . !

لعل هذه ثالث مرة أكتب فيها عما وقع عليه منظارى فى الترام مما يصور أخلاق بعض الناس فى مجتمعنا الواسع ، والترام لا تنس أيها القارىء مجتمع له خطره . وإن عجبت لهذا التعبير فأخطر ببالك مبلغ ما تتلىّ به طيلة النهار وساعات من الليل تلك المركبة من أنماط الناس مرات كثيرة متتابعة

وما انخفت موضعاً لى يوماً بين هؤلاء الناس إلا وقع منظارى على ما لا أحب أن يقع عليه . ولو أنى رحت أحدثك كل يوم بما أرى لجئتك كل يوم بالطريف ، بل ولحملتك على أن تستزيدنى إن سكت

وماذا عسى أن أعرض عليك اليوم مما شاهدت والمجال لا يتسع له كله وليس فيه ما أحب أن أدعه ، وما أعرض عليك ما أعرض محبة فى نشر ما يعاب وإنما أشهر بما يعاب بغية القضاء عليه ...

هذان يافعان من أبناء مدارسنا يكلم كلاهما صاحبه وكأنه يتعمد أن يسمع الراكبين جميعاً ، وليت العيب قاصراً على ما يحدث كلاهما من ضجة مكروهة ، بل إنهما ليتحدثان فى غير تحفظ عن أمور أحسب أن الحديث فيها مما يوجب الخجل لو جرى بينهما على انفراد ، دع عنك ما ينعت به كل منهما صاحبه من الألفاظ التى تستفظع صدورها من السوقة إذا عظمت بينهم جلبة المزاح ، أو إذا استحرّ بينهم بالأيدى والألسن القتال ... وما أرى على وجه من هذين الوجهين أى شعور بأنهما تقع عليهما أعين الناس

ودع هذين إلى ذلك الذى يتحدث إلى جيرانه عن إحدى القضايا فيذكر أسماء معروفة ويعقب على كل اسم بما يشاء له أدبه من قاذع السباب فى غير تحرج ولا مبالاة

ثم ما فضيلة هذا (الإنسان) الذى جعل يحملق فى فتاة أمامه من بنات المدارس لا يكاد يتحول نظره عنها وإنما يتحرك بصره إذ يتحرك صاعداً من طرف قدميها إلى قمة رأسها فيستقر بعض الوقت فى مواضع معينة ، ثم يهبط إلى أسفل من جديد متوقفاً عند مواضع الاستقرار حتى يعود إلى حيث بدأ ليصعد من جديد ، وهكذا دواليك دون أن يفطن هذا الأفندى إلى ما يكاد يزهق روحها من ضيق وارتباك

وما هذا الذى راح يقضم القلب ويلق بقشره فى سرعة فيقع على ملابس من هم حوله فى غير وعى منه كأنما يفعل ذلك فى حجرته الخاصة ؛ فإذا فرغ ما فى يده دسها فى جيب سرواله فسادت ممتلئة ، ودار فكاه فألقيا بالقشر تباعاً كأنهما تلك الآلة التى تفصل القمح حبه عن تبنه فى الأجران

وماذا يريد ذلك « البارد » الذى يطيل النظر إلى ملابس من هم أمامه ، كأنما يتفرج على معروضات الأزياء فى إحدى « الفترينات » . يفحص ببصره أربطة الرقبة والقمصان والحلل ولا يتحول بعينيه عنك مهما أبديت له بنظراتك من دهش أو استنكار ! !

على أن هؤلاء جميعاً أهون شراً وأقل خطورة من ذلك الذى جلس فى طرف المقعد إلى اليسار وأخذ يبصق كل بضع ثوان بصقة لا يبالى على أنف من ولا على عين من وقع رشاشها العذب الذى ينثره الهواء على من خلفه ، كأنما يتحتم على راكب الترام أن يلبس قناعاً من الأقنعة الواقية ...

ومثل ذلك الظريف هذا الذى يتحرك لينزل فيطأ بنعله وجه نعلك ، أو يفزع بيده طربوشك فما تدرى إلا وقد طار عن رأسك ، أو يتحاشى الانزلاق إذ يقرب من السلم فتستقر لطمة منه على عينيك أو خدك أو أنفك بحيث لو سددها إليك من يتعمد ذلك — لا قدر الله — ما جاءت محكمة كما تجىء من يد ذلك الذى يمر بك أثناء نزوله من الترام ، وإنه ليقع منه ذلك فلا يلتفت إليك بكلمة اعتذار أو بنظرة أسف ! وسبحان الذى سوى الجبلات

ودع عنك غير من ذكرت (المتشبطين) على السلم والمتحاربين مع « الكمسارى » من أجل مليم مشكوك فى أمره ، أو على الأكثر من أجل قرش زائف ، دع عنك هؤلاء فالأمر محصور بينهم وبين « الكمسارى » إلا إذا نفخ هذا فى زمارته فأوقف الترام وأخذ الجميع بذنب صغيق أو صغيقين

أقسم لك أن ذلك كله حدث فى الترام فى وقت معاً ، فإن لم تصدقنى بعد هذا القسم فليس لدى شك فى أنك لم تركب هذه المركبة

الطيف